

تفسير ابن كثير

* وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ

يقول تعالى مخبرا عن تغت قريش في كفرهم وتعمدهم العناد والجدل : (ولما ضرب

ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون) قال غير واحد ، عن ابن عباس ، ومجاهد ،

وعكرمة ، والضحاك ، والسدي : يضحكون ، أي : أعجبوا بذلك . وقال قتادة : يجزعون

ويضحكون . وقال إبراهيم النخعي : يعرضون . وكان السبب في ذلك ما ذكره محمد بن

إسحاق في السيرة حيث قال : وجلس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - - فيما بلغني -

يوما مع الوليد بن المغيرة في المسجد ، فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم ، وفي

المجلس غير واحد من رجال قريش ، فتكلم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فعرض

له النضر بن الحارث ، فكلمه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى أفحمه ، ثم تلا

عليه وعليهم : (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون) الآيات [

الأنبياء : 98] . ثم قام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأقبل عبد الله بن الزبيري

التميمي حتى جلس ، فقال الوليد بن المغيرة له : والله ما قام النضر بن الحارث لابن

عبد المطلب وما قعد ، وقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم ، فقال
عبد الله بن الزبيري : أما والله لو وجدته لخصمته ، سلوا محمدا : أكل ما يعبد من دون
الله في جهنم مع من عبده ، فنحن نعبد الملائكة ، واليهود تعبد عزيزا ، والنصارى تعبد
المسيح [عيسى] ابن مريم ؟ فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول عبد الله
بن الزبيري ، ورأوا أنه قد احتج وخاصم ، فذكر ذلك لرسول الله - صلى الله عليه وسلم
- فقال : " كل من أحب أن يعبد من دون الله ، فهو مع من عبده ، فإنهم إنما يعبدون
الشيطان ومن أمرهم بعبادته " فأنزل الله عز وجل : (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى
أولئك عنها مبعدون) [الأنبياء : 101] أي : عيسى وعزير ومن عبد معهما من الأحرار
والرهبان الذين مضوا على طاعة الله ، عز وجل ، فاتخذهم من يعبدهم من أهل الضلالة
أربابا من دون الله . ونزل فيما يذكرون أنهم يعبدون الملائكة وأنهم بنات الله : (وقالوا
اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون) الآيات [الأنبياء : 26] ، ونزل فيما يذكر
من أمر عيسى وأنه يعبد من دون الله . وعجب الوليد ومن حضره من حجته وخصومته : (ولما
ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون) أي : يصدون عن أمرك بذلك من قوله

. ثم ذكر عيسى فقال : (إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل ولو نشاء
لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون وإنه لعلم للساعة) أي : ما وضعت على يديه من
الآيات من إحياء الموتى وإبراء الأسقام ، فكفى به دليلاً على علم الساعة ، يقول : (فلا
تمترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم) . وذكر ابن جرير من رواية العوفي ، عن ابن عباس
قوله : (ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون) قال : يعني قريشاً ، لما قيل لهم
: (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون) [الأنبياء : 98] إلى
آخر الآيات ، فقالت له قريش : فما ابن مريم ؟ قال : " ذاك عبد الله ورسوله " . فقالوا :
والله ما يريد هذا إلا أن نتخذه ربا ، كما اتخذت النصراني عيسى ابن مريم ربا ، فقال
الله تعالى (ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون) . وقال الإمام أحمد : حدثنا
هاشم بن القاسم ، حدثنا شيبان ، عن عاصم بن أبي النجود ، عن أبي رزين ، عن أبي
يحيى - مولى ابن عقيل الأنصاري - قال : قال ابن عباس : لقد علمت آية من القرآن ما
سألني عنها رجل قط ، فما أدري أعلمها الناس فلم يسألوا عنها ، أم لم يفتنوا لها فيسألوا
عنها . قال : ثم طفق يحدثنا ، فلما قام تلاومنا ألا نكون سألناه عنها . فقلت : أنا لها إذا راح

غدا . فلما راح الغد قلت : يا ابن عباس ، ذكرت أمس أن آية من القرآن لم يسألك عنها رجل قط ، فلا تدري أعلمها الناس أم لم يفتنوا لها ؟ فقلت : أخبرني عنها وعن اللاتي قرأت قبلها . قال : نعم ، إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال لقريش : " يا معشر قريش ، إنه ليس أحد يعبد من دون الله فيه خير " ، وقد علمت قريش أن النصارى تعبد عيسى ابن مريم ، وما تقول في محمد ، فقالوا : يا محمد ، ألسنت تزعم أن عيسى كان نبيا وعبدا من عباد الله صالحا ، فإن كنت صادقا ، كان آلهتهم كما تقولون ؟ ! قال : فأنزل الله : (ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون) . قلت : ما يصدون ؟ قال : يضحكون ، (وإنه لعلم للساعة) قال : هو خروج عيسى ابن مريم قبل القيامة . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن يعقوب الدمشقي ، حدثنا آدم ، حدثنا شيبان ، عن عاصم بن أبي النجود ، عن أبي أحمد مولى الأنصار ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " يا معشر قريش ، إنه ليس أحد يعبد من دون الله فيه خير " . فقالوا له : ألسنت تزعم أن عيسى كان نبيا وعبدا من عباد الله صالحا ، فقد كان يعبد من دون الله ؟ فأنزل الله عز وجل : (ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون) . وقال

مجاهد في قوله : (ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون) : قالت قريش : إنما

يريد محمد أن نعبده كما عبد قوم عيسى عيسى . ونحو هذا قال قتادة .